مسرح السؤال

الياس خوري

ماذا يجري في فلسطين؟

البداية أم الموت؟ أم سؤال ضائع بين ركام النهايات، يعيد صياغة البداية من جديد، ويعيد الاسم إلى أرضه؟

فلسطين التي تتسمّى اليوم بأسماء القتلى في شوارع مدنها وأزقّة قراها ومخيّماتها تسأل: هل نحن أمام شرفة الحياة، أم نحن أمام المسألة التي تحمل الحقيقة، وتجعل الحقيقة حقيقية، وتعيد رسم المعنى وسط حطام العالم العربيّ المتكئ على ذاكرته المفقودة، والمنتفخ بذكرى ماضيه التي يحوّلها إلى بديل عن حاضر غائم في القمع والغيب والغيبوبة؟

تعالوا نسأل، ففلسطين تعود مرة أخرى كمسرح وحيد للسؤال، هي المسرح والسؤال، هي المعنى والحدث، هي نحن. ونحن نخاف من أنفسنا ومن معرفتنا. نخاف لأن ذاكرتنا أقوى من عيوننا، فنعود إلى لغة الماضي، أو نلتجىء إلى بلاغة الرمز، ونحن نعرف أن البلاغة ماتت من زمان، والرمز تشظّى داخل هذا التاريخ الدموي الذي صنعته فلسطين. وها هي، في انتفاضتها، تدعونا من جديد كي نرى، ونذهب معها في رحلتها ـ رحلتنا إلى تاريخنا الحقيقي.

تعالوا نقرأ الانتفاضة ونسألها؟

تعالوا لنوقف هذه الارتكاسة اللغوية التي تحيط بالانتفاضة، وتحوّلها إلى غناء مبحوح للحجارة، كأن الغناء يحرّرنا من مسؤولية أن نرى ونشهد ونقول.

المسيرة التي تصل اليوم إلى الانتفاضة ليست وليدة اللاشيء. إنها محصّلة مسارٍ طويل تشكّل كخطّ من التقاطعات الرهيبة التي فجّرت مجتمعاتنا، قبل أن تعود من رحلتها الرمزية إلى أرضها. فبعد السفن اليونانية والبحر لم يكن أمام فلسطين سوى العودة الى فلسطين. وكانت طريق العودة، معرّجة ودموية. لكنها وصلت. لتعلن أنها قادرة على أن تبدأ من جديد. وقد تحرّرت من أورام الرمز. وبلاغة الشعار.

بدأت المسيرة بالطرد، وها هي في محطّتها الجديدة، تأتي بعد طرد آخر. ففي عام ١٩٤٨ نجحت إسرائيل في طرد فلسطين من فلسطين، وفي عام ١٩٨٢ نجحت إسرائيل مرة أخرى في طرد الاسم الفلسطيني من بيروت ورميه إلى البحر. وبين الطردين حروب وحروب أهلية، وحجرات، ومجتمعات ممزّقة، ودول تكشف عن هشاشتها، ومجتمعات تغرق في الغيبوبة، وقمع، وأحذية، وحلم ممزّق كخرقة يحمله الناس ككفن، ومخيّمات مطحونة، ولبنان الأشلاء.

مسيرة الاسم الفلسطيني إلى أرضه، هي تلخيص مكثّف للحكاية العربية كلّها. فالعالم العربي الخارج من الظلام العثماني، إلى التشرذم على أيدي الغرب الاستعماري، كان عاجزاً عن المواجهة، ومتخبّطاً في تلمُّس تاريخه، حين أتت المأساة الفلسطينية عام ١٩٤٨، لتدفع به إلى سلسلة من الحروب غير المتكافئة، ولتطرح عليه أسئلة كان عاجزاً عن الإجابة عليها.

هكذا يتمدّد التاريخ العربيّ الحديث، بكونه تاريخ العجز عن صياغة ردود على الواقع الجديد، مما قاده إلى سلسلة من الهزائم المتراكمة، وجعل المواجهة مع إسرائيل، عنواناً لتكسّر المجتمعات العربية أو سقوطها في قبضة القمع الانقلابي. وهذا ما سمح لإسرائيل بأن تتحوّل من خدعة إلى ما يشبه الحقيقة، وحوّل الخطاب العربي عن فلسطين، إلى بلاغة

عاجزة عن الحوار مع العالم، لأنه تحوّل إلى دغدغة لوهم الذات، والى استعادة مستحيلة لماضٍ انقضى.

غير أن تاريخ الهزائم العربية، كان في المقابل تلمّساً، ولو أعمى، لعالم جديد لا نعرفه. هكذا قذفتنا إسرائيل إلى قلب الصراع في العالم، وفرضت علينا التحوّل إلى مختبر المواجهة الأخيرة، بين العالم الثالث والقوى الاستعمارية الغربية، وفرضت على مجتمعاتنا رحلة التاريخ، عبر العنف والأسئلة والحروب.

وسط هذه الدوامة كان الاسم الفلسطيني هو الغائب. وفي بحثه عن نفسه يتلخّص تاريخنا المنشبك بتاريخ عدوّنا الجديد، وحين يولد هذا الاسم اليوم، فإنه يطرح سؤالين كبيرين: سؤال على تاريخ إسرائيل وشرعيتها، وسؤال على التاريخ العربي الحديث واحتمالات تطوّره.

هذا الاسم كان محاصراً دائماً بسلسلة من الحجابات التي تمنعه من الظهور.

الحجاب الأول، كان حجاباً إسرائيلياً. فإسرائيل المولودة من رحم المجزرة العنصرية الأوروبية ضدّ اليهود، تكون أداة للمجزرة نفسها. مفارقة ـ حجاب: ضحايا العنصرية الأوروبية يأتون إلى بلادنا ليشكّلوا امتداد هذه العنصرية وأداتها وعنصر استمرارها ضد المشرق العربي المكسور بانحطاطه الطويل. وكي تكون الأداة أحجية فإنها تستعير كل ثقافة التنوير الأوروبية، من العقلانية الى المغامرة، لتؤسّس وطناً عالمياً جديداً ديمقراطياً ودينياً، علمانياً وأوتوقراطياً. وليتأسّس هذا الوطن عبر نفي شعب آخر، وعدم الاعتراف بوجوده، ونقل الحرب دائماً إلى خارج «أرض الميعاد»، كي يجري تصويرها على أنها حرب مع خارج عربيّ عنصريّ يريد استكمال المذبحة ضد اليهود.

هذا الحجاب ـ الأحجية، الذي استطاعت إسرائيل صناعته بدقّة متناهية، بعد الحرب العالمية الثانية، نجح في شطب الشعب الفلسطيني من الوجود، كما نجح في خلق أسطورة إسرائيلية سيطرت على مخيلة العنصريين الأوروبيين المحبطين من نهاية المرحلة الاستعمارية، وشكلت رديفاً للحكم الأميركي وهو يتشكل هذه المرة عبر العودة إلى الجذور.

الحجاب الثاني، كان حجاباً عربياً، فعدم القدرة العربية على فهم ما يجري ومواجهته، حوّل الحدث الاسرائيلي إلى هاجس أمني فالخوف على الوضع القائم، وهشاشة الدول التي نشأت بعد تقسيم المنطقة، جعلت من الانقلاب الشكل الوحيد للحفاظ على الوجود، وحجبت أسئلة الحاضر عبر القفز من فوقه. ومع ذلك فإن هذا الحجاب تشقّق بعد ١٩٦٧، عندما كشفت إسرائيل عن قوتها الحقيقية، وسمحت عبر احتلالها للأرض وتوحيدها لفلسطين من جديد، للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي، بأن يبرز، مبرزاً معه الهويّة الفلسطينية.

الحجاب الثالث، كان حجاباً فلسطينياً. فالنضالات الفلسطينية ضد الاحتلال الانكليزي والاستيطان الصهيوني، والتي وصلت عام ١٩٣٦ إلى ذروتها، كانت غير قادرة على صياغة إشكالية مواجهة خاصة بها، فاندرجت ضمن إشكالية الحركة الاستقلالية العربية، وأدت بذلك إلى امحاء الاسم الفلسطيني في بحر عربيّ عامّ وغائم وغير محدّد.

ثلاثة حجابات لم يكن كشفها، إلا إعلاناً لولادة المواجهة التاريخية. وإذا كان كشف الحجابين العربي والفلسطيني قد قاد إلى سلسلة من الحروب الأهلية بدأت في عمان ولم تنته في بيروت، فإن كشف الحجاب الإسرائيلي هو الأكثر صعوبة ودموية.

كانت الرحلة إذاً، حتى وإن تسمّت بالاسم الفلسطيني، رحلة المشرق العربي بأسره إلى اكتشاف تناقضاته، واكتشاف حاضره. وإذا كان الانفجار اللبناني الذي لا قرار له هو العلامة البارزة في هذه الرحلة، فإنه ليس العلامة الوحيدة. فالمرآة اللبنانية كانت الوجه الحقيقي لأنظمة أقيمت على أنقاض العقل، ولدول تنامت أجهزتها القمعية على أنقاض الشعب. العامل الفلسطيني وهو يكشف الحجاب العربي، لم يأتِ بالحلول، لكنه طرح السؤال الأكثر عمقاً، وحوّل المنطقة بأسرها إلى مكان للانفجارات الاجتماعية والسياسية والفكرية، التي ما تزال نتائجها مجهولة.

ولقد قدّر الإسرائيليون أن الحروب الأهلية قد أنهكت الوجود الفلسطيني، لذلك اندفعت إسرائيل إلى اجتياح لبنان عام ٨٢، لتوصل منطقها إلى نهايته، ولتدخل هي هذه المرة في الأتون الذي اعتقدت أنها أغرقت المشرق العربي فيه.

من لبنان إلى البحر، هكذا اعتقد الغزاة، ليستفيقوا على حقيقة أن رحلة لبنان كانت مكلفة وأن البحر المتوسط هو بحر فلسطين أيضاً. الاندفاعة الاسرائيلية إلى إعلان حقيقة المشروع الاسرائيلي بضم الضفّة وغزة، هو الذي أوصل الاسم الفلسطيني إلى القدرة على البدء بكشف الحجاب الاسرائيلي.

وكانت الانتفاضة.

الانتفاضة هي استمرار لتاريخ فلسطيني طويل يتأسّس خارج أرضه، فإذا به يكتشف مكانه الحقيقي، وينتقل إلى المرحلة الأكثر صعوبة. مرحلة كشف الحجاب الاسرائيلي تمهيداً لبدء معركة الاستقلال.

الانتفاضة تضع إسرائيل أمام خيار وحيد: كشف حقيقتها. أي التحوّل إلى جنوب افريقيا ما دامت عاجزة عن أن تستمرّ في لعبة المزاوجة بين الديمقراطية والعنصرية، وبين العلمانية والتوراتية. هذا الكشف لا يعني أن المسألة الفلسطينية بدأت طريقها إلى الحل، بل يعني أن إسرائيل دخلت في مأزقها التاريخي، بعد أن قامت الانتفاضة الفلسطينية بتجريدها من حجابها الأيديولوجي الكثيف.

المواجهة اليوم ليست في الخارج، إنها في الداخل، وقذف المشكلة إلى الخارج صار مستحيلاً، فإلى أين بعد البحر وبعد بيروت؟ ومواجهة الداخل تعني أن على إسرائيل أن تتصرّف كالمستعمرين، وأن قدرتها على إخفاء استعمارها بدموع عقدة الذنب الأوروبية صارت مستحيلة. وهذا يعني أنها ستكون أكثر توحّشاً وأكثر قمعية واستعداداً للمغامرة.

أما الشعب الفلسطيني، فإنه سيكتشف مرة أخرى، أنه وحده. مثله مثل بقية الشعوب العربية التي تواجه القمع والإرهاب وحيدة وعزلاء. الشعب الفلسطيني وحده، لكنه مرة أخرى يصعد إلى مسرح السؤال العربي، ويكون سؤاله هو السؤال الكبير والأساسي. يندفع إلى تعرية إسرائيل من حجابها، لكنه أيضاً يزيل الحجاب عن عيون الجميع، ويسأل هذا المحيط العربي المنكسر بأجوبته الناقصة.

فهل تكون الانتفاضة، أكثر من رد على هزيمة ٨٢، وأكثر من استعادة لما قبل الغزو الإسرائيلي للبنان؟

هل تكون بداية تفكير وممارسة جديدتين؟

إنها الجديد الوحيد في هذا العالم العتيق المتآكل، وسؤالها الكبير هو مدخلنا إلى اكتشاف علاقتنا بالتاريخ.

صدر حديثاً

المرأة في الرمال

رواية للكاتب الياباني

كوبو آبي

ترجمة كامل يوسف حسين

منشورات دار الآداب